

## الفصل الأول

ابكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ

إخواني: لو تَهَكَّرَتِ النَّفُوسُ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَتَدَكَّرَتِ حَسَابَهَا فِيمَا لَهَا وَعَلَيْهَا، لَبَعَثَ حَزْنُهَا بِرِيدِ دَمْعِهَا إِلَيْهَا؛ أَمَا يَحِقُّ الْبُكَاءُ لِمَنْ طَالَ عَصِيانُهُ: نَهَارَهُ فِي الْمَعَاصِي، وَقَدْ طَالَ خُسْرَانُهُ، وَلَيْلَهُ فِي الْخَطَايَا؛ فَقَدْ خَفَّ مِيزَانُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْمَوْتُ الشَّدِيدُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَلْوَانُهُ • وَرَوَى ابْنُ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَجَرَ فَاسْتَلَمَهُ، ثُمَّ وَضَعَ شَفْتَيْهِ عَلَيْهِ يَبْكِي طَوِيلًا، فَالْتَفَتَ، فَإِذَا هُوَ بِعَمْرِو يَبْكِي، فَقَالَ: يَا عَمْرُ هَهنا تُسْكَبُ الْعِبْرَاتُ) • وَقَالَ أَبُو عَمْرانِ الْجَوْنِيُّ: بَلَّغَنِي أَنْ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُبْكِيكَ: قَالَ: أَوْ مَا تَبْكِي أَنْتَ؟ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا جَفَّتْ لِي عَيْنٌ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ جَهَنَّمَ مَخَافَةَ أَنْ أَعْصِيَهُ فَيُلْقِيَنِي فِيهَا • وَقَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيُّ: إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ حَوْلَ الْعَرْشِ تَجْرِي أَعْيُنُهُمْ مِثْلَ الْأَنْهَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: يَمِيدُونَ كَأَنَّمَا تَنْفُضُهُمُ الرِّيحُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، فَيَقُولُ لَهُمُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: يَا مَلَائِكَتِي، مَا الَّذِي يُخْفِكُمْ وَأَنْتُمْ عِبِيدِي: فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ اطَّلَعُوا مِنْ عِزَّتِكَ وَعِظَمَتِكَ عَلَيَّ مَا اطَّلَعْنَا: مَا سَاغُوا طَعَامًا وَلَا شَرَابًا، وَلَا انْبَسَطُوا فِي شَرِبِهِمْ، وَخَرَجُوا فِي الصَّحَارَى يَخْرُونَ كَمَا تَخْرُ الْبَقَرُ وَقَالَ الْحَسَنُ: بَكَى آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَهْبَطَ مِنَ الْجَنَّةِ مِائَةَ عَامٍ حَتَّى جَرَتْ أَوْدِيَةٌ سَرَنْدِيبٍ مِنْ دَمْعِهِ، فَأَنْبَتَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْوَادِي مِنْ دَمْعِ آدَمَ الدَّارِصِيْنِي وَالْفَلْفَلَ، وَجَعَلَ مِنْ طَيْرِ ذَلِكَ الْوَادِي الطَّوَاوِيْسَ • ثُمَّ إِنَّ جَبْرِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاهُ وَقَالَ: يَا آدَمُ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَقَدْ غُفِرَ لَكَ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ فَطَافَ بِهِ أُسْبُوعًا، فَمَا أَمَّه حَتَّى خَاضَ فِي دَمْعِهِ • وَقَالَ ابْنُ أُسْبَاطٍ: لَوْ عَدَلَ

بِكَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِبِكَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بِكَاءِ آدَمَ أَكْثَرَ:

بَكَيْتُ عَلَى الذَّنُوبِ لِعِظَمِ جُرْمِي ... وَحَقَّ لِمَنْ عَصَى مُرَّ الْبُكَاءِ  
فَلَوْ أَنَّ الْبُكَاءَ يَرُدُّ هَمِّي ... لَأَسْعَدَتِ الدُّمُوعُ مَعَ الدَّمْعِ

قال وهيب بن الورد: لما عاتب الله نوحاً أنزل عليه (إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)، فبكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت أعينه أمثال الجدائل من البكاء • قال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لأنه كان نوحاً حياً.

أَنُوحُ عَلَى نَفْسِي وَأَبْكِي خَطِيئَةً ... تَقُودُ خَطَايَا أَنْقَلتْ مِنِّي الظَّهْرَ  
فِيما لَذَّةٌ كانت قَلِيلَ بَقاؤُها ... وَيا حَسْرَةً دَامَتْ وَلَمْ تُبْقِ لِي عُذْرًا

وقال السدي: بكى داود حتى نبت العشب من دموعه، فلما رماه سهم القدر جعل يتخبط في دماء تفريطه ولسان اعتذاره يُنادي: اغفر لي، فأجابه: للخطاين، فصار يقول: اغفر للخطاين • قال ثابت البناني: خَشِيَ داود سبعة

أَفْرَشَ بِالرَّمَادِ ثُمَّ بَكَى حَتَّى أَنْفَذَتْها دَمُوعُهُ •

تَصاعَدُ مِنْ صَدْرِي الْغَرَامُ لِمُقْلَتِي ... فَعَالَبَنِي شَوْقِي بِفَيْضِ الْمَدَامِ  
وَإِنَّ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ قَمَرِيَّةً إِذَا ... بِكَيْتُ بَكَتْ فِي الدُّوْحِ طُولَ الْمَدَامِ

قال سليمان التيمي: ما شرب داود عليه السلام شراباً إلا مزجه بدموع عينيه • قال مجاهد: سأل داود ربّه أن يجعل خطيئته في كفه فكان لا يتناول طعاماً ولا شراباً إلا أبصر خطيئته فبكى، وربما أتى بالقدح ثلثاه فمد يده وتناوله،

فينظر إلى خطيئته، ولا يضعه على شفثيه حتى يفيض من دموعه • وقال بعض أصحاب فتح: (رأيتته ودموعه خالطها صُفرة فقلت: على ماذا بكيتَ الدَّم؟ قال: بكيتُ الدموع على تخلفي عن واجب حق الله، والدم خوفاً أن لا أُقبل، قال: فرأيتته في المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لي، قلت: فدموعك؟! قال: قربتني، وقال: يا فتح على ماذا بكيت الدموع؟ قلت: يا رب على تخلفي عن واجب حقك، قال: فالدم؟ قلت: بكيت على دموعي خوفاً أن لا تصبح لي، قال: يا فتح، ما أردت بهذا كله، وعزتي وجلالي لقد سعدت إلى حافظك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة) •

أجارتنا بالصدر والركب مُتَّهَم ... أَيْعَلَمُ خَالَ كَيْفَ بَاتَ الْمُتَّيِّمُ  
رَحَلْتُمْ وَعُمَرَ اللَّيْلَ فِينَا وَفِيكُمْ ... سِوَاءٌ وَلَكِنَّ سَاهِرَاتٍ وَنَوْمٍ

تَنَاءَيْتُمْ مِنْ طَاعِنِينَ وَخَلَفُوا ... قُلُوباً أَبَتْ أَنْ تَعْرِفَ الصَّبْرَ عَنْهُمْ  
وَلَمَّا جَلَى التَّوْدِيْعُ عَمَّا حَذَّرْتَهُ ... وَلَا زَالَ نَظْرَةً تَتَعَنَّمُ  
بَكَيْتَ عَلَى الْوَادِي فَحَرِمْتَ مَائَهُ ... وَكَيْفَ يَحِلُّ الْمَاءَ أَكْثَرَهُ دَمٍ

قال عبد الله بن عمرو: كان يجي بيكي حتى بدت أضراسه • قال مجاهد: كانت الدُّمُوع قد اتخذت في خده مجرى •  
يا من معاصيه أكثر من أن تحصى، يا من رضي أن يطرد ويقصى، يا دائم الزلل وكم ينهى ويوصى، يا جهولاً بقدرنا  
ومثلنا لا يعصى، إن كان قد أصابك داء داود فتح نوح نوح، تحيا بحياة يحيى • روى عن عمر بن الخطاب رضي الله  
عنه أنه كان في وجهه خطوط مسودة من البكاء • وبكى ابن مسعود، حتى أخذ بكفه من دموعه فرمى به • وكان  
عبد الله بن عمر يطفى المصباح بالليل ثم يبكي حتى تلتصق عينيه • وقال أبو يونس بن عبيد: كما ندخل عليه فيبكي  
حتى نرحمه • وكان سعيد بن جبير، قد بكى حتى عمش • وكان أبو عمران الجوني، إذا سمع المؤذن، تغير وفاضت  
عيناه • وكان أبو بكر النهشلي، إذا سمع الأذان تغير لونه وأرسل عينيه بالبكاء • وكان نهاد بن مطر العدوي، قد  
بكا حتى عمى • وبكى ابنه العلاء، حتى عشى بصره • وكان منصوره قد بكى حتى جردت عيناه • وكانت أمه تقول:  
يا بني، لو قتلت قتيلاً ما زدت على هذا • وبكى هشام الدستوائي حتى فسدت عيناه وكانت مفتوحة، وهو لا يصبر  
بها • وبكى يزيد الرقاشي أربعين سنة حتى أظلمت عيناه وأحرقت الدموع مجاورتها • وبكى ثابت البناني حتى كاد  
بصره أن ينهب، وقيل له: نعالجك، على أن لا تبكي، فقال: لا خير في عين لم تبك:

بَكَى الْبَاكُونَ لِلرَّحْمَنِ لَيْلًا ... وَبَاتُوا دَمْعُهُمْ مَا يَسْأَمُونَ

بِقَاعِ الْأَرْضِ مِنْ شَوْقِي إِلَيْهِمْ ... تَحْنُ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجُدُونَ

كان الفضلُ قد أَلْفَ الْبُكَاءِ، حتى ربما بكى في نومه حتى يسمع أهل الدار:

وَرَقَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ حَتَّى كَانَتْهَا ... دُمُوعٌ دُمُوعِي، لَا دُمُوعَ جُفُونِي

وكان أبو عبيدة الخواص يبكي، ويقول: قد كبرت فاعنقني • ويقول الحسن بن عدقة: رأيت يزيد بن هارون بواسط  
من أحسن الناس عينين ثم رأيتته بعد ذلك مكفوف البصر فقلت له: ما فعلت العينان الجميلتان؟ قال: ذهب بهما  
بكاء الأسحار، يا هذا لو علمت ما يفوتك في السحر ما حملك النوم، تقدم حيثنذ قوافل السهر على قلوب  
الذاكرين، وتحط رواحل المغفرة على رباح المستغفرين، من لم يذق حلاوة شراب السحر لم يبلغ عرفانه بالخير، من لم  
يتفكر في عمره كيف انقرض لم يبلغ من الحزن الغرض • قيل لعطاء السليمي: ما تشتهي؟ قال: أشتهي أن أبكي حتى  
لا أقدر أن أبكي، وكان يبكي الليل والنهار، وكانت دموعه الدهر سائلة على وجهه • وبكى مالك بن دينار حتى  
سود طريق الدموع خديه، وكان يقول: لو ملكت البكاء لبكيت أيام الدنيا:

ألا ما لعين لا ترى قُلَّ الحمى ... ولا جبل الدِّيَانِ إلا استهلت  
 لجوخ إذا الحبُّ بكى إذا بَكَتْ  
 قادت الهوى وأَحَلَّتْ ... إذا كانت القلوب للخوف ورَقَّتْ  
 رَفَعَتْ دموعها إلى العين وقت ... فأعنتت رقاباً للخطايا رَقَّتْ  
 من لم يكن له مثل تقواهم، لم يعلم ما الذي أبكاهم، من لم يشاهد جمال يوسف: لم يعلم ما الذي ألم قلب يعقوب:  
 من لم يبت والحب حشو فؤاده ... لم يدر كيف نُفَّتت الأكياد  
 فيا قياسي القلب، هلاً بكيت على قسوتك، ويا ذاهل العقل في الهوى هلاً ندمت على غفلتك، ويا مقبلاً على الدنيا  
 فكأنك في حفرتك، ويا دائم المعاصي خف من غبِّ معصيتك؛ ويا سيئ الأعمال نُح على خطيئتك، ومجلسنا مآثم  
 للذنوب، فابكوا فقد حلَّ مِنَّا البُكَاء، ويوم القيامة ميعادنا لكشف الستور وهتك الغطاء .

## الفصل الثاني

### تَفَكَّرْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ

إخواني تفكروا في الحشر والمعاد، وتذكروا حين تقوم الأشهاد: إن في القيامة خسرات، وإن في الحشر لفرات، وإن  
 عند الصراط لعثرات، وإن عند الميزان لعبرات، وإن الظلم يومئذ ظلمات، والكتب تحوى حتى النظرات، وإن  
 الحسرة العظمى عند السيئات، فريق في الجنة يرتقون في الدرجات، وفريق في السعير يهبطون الدرجات، وما بينك  
 وبين هذا إلا أن يقال: فلان مات، وتقول: ربّ أرجعوني، فيقال: فات . روى البخاري ومسلم في صحيحهما من  
 حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في  
 الأرض سبعين ذراعاً ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم) . وأخرج جميعاً من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى  
 الله عليه وسلم قال في حديث: (ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، فقيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال:  
 مدحه ومزلة، عليه خطاطيف وكلايب وحسك، المؤمن يعبر عليه كالطرف وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل،  
 فجاج مسلم، وناج مخلوش، حتى يمرّ آخرهم يُسحب سحباً) . لله درّ أقوام أطار ذكر النار عنهم النوم، وطال  
 اشتياقهم إلى الجنان الصوم، فحلت أجسادهم، وتغيرت ألوانهم، ولم يقبلوا على سماع العدل في حالهم واللوم،  
 دافعوا أنفسهم عن شهوات الدنيا بغد واليوم، دخلوا أسواق الدنيا فما تعرضوا لشراء ولا سوم، تركوا الخوض في  
 بحارها والعموم، ما وقفوا بالإشام والروم، جدوا في الطاعة بالصلاة والصوم، هل عندكم من صفاتهم شيء يا قوم؟  
 قالت أم الربيع أم حنيم لولدها: يا بني ألا تنام؟ قال: يا أمه، من جنّ عليه الليل وهو يخاف الثبات حق له أن لا  
 ينام . فلما رأت ما يلقي من السهر والبكا، قالت: يا بني لعلك قتلت قتيلاً، قال: نعم، قالت: ومن هذا القتيل حتى  
 نسأل أهله فيغفرون، فوالله لو يعلمون ما تلقى من السهر والبكاء لرحموك، فقال: يا والدي، هي نفسي . قيل لزيد  
 بن مزيد: ما لنا لم نزل نراك باكياً، وجلاً خائفاً، فقال: إن الله توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار، والله لو لم  
 يتوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لبكيت حتى لا تجف لي عبرة . وكان آمد الشامي يبكي ويتسحب في المسجد حتى  
 يعلو صوته وتسيل دموعه على الحصى، فأرسل إليه الأمير: إنك تفسد على المصلين صلاتهم بكثرة بكائك، وارتفاع  
 صوتك، ولو أمسكت قليلاً، فبكي ثم قال: إن حزن يوم القيامة أورثني دموعاً غزيراً فأنا أستريح إلى ذرها:  
 يا عاذلَ لُشْتاقِ دَعُهُ فَإِنَّهُ ... يطوى على الرِّفَاتِ غير حشاك

لو كان قلبك قلبه ما لئنه ... حاشاك مما عنده حاشاكا

وعوب عطاء السلمي في كثرة البكاء، فقال: إني إذا ذكرت أهل النار وما يُنزَلُ بهم من عذاب الله تعالى، مثلت نفسي بينهم فكيف لنفس تغلّ يدها وتسحب إلى النار ولا تبكي؟ وقيل لبعضهم: ارفق بنفسك، فقال: الرفق أطلب • وقال أسلم بن عبد الملك: صحبت رجلاً شهريين، وما رأيته نائماً بلبيل ولا نهار، فقلت: ما لك لا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى • كثر فيك اللوم فأين سمعي وهم قلبي واللوم عليك منجد ومتهم؟ قال: أسهرت والعيون الساهرات نوم، وليس من جسمك إلا جلدة وأعظم • وما عليهم سهري ولا رقادي لهم، وهل سمان الحب إلا سهر وسقم، خذ أنت في شأنك يا دمعي وخل عنهم •

### الفصل الثالث

#### بادر بالأعمال الصالحة

طوبى لمن بادر عمره القصير، فعمر به دار المصير، وقيماً لحساب الناقد البصير قبل فوات القدرة وإعراض النصير • قال عليه الصلاة والسلام: (بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً؟ أو غني مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً، أو هرماً مفنداً، أو الدجال، فشر غائب ينتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر) • كان الحسن يقول: عجبت لأقوام أمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل، وجلس أولهم على آخرهم وهم يلعبون • وكان يقول: يا بن آدم: (السكين تشخذ والتنور يسجر، والكبش يعتلف) •

وقال أبو حازم: إن بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثروا منها في أو ان كسادها، فإنه لو جاء وقت نفاقها لم تصلوا فيها إلى قليل ولا كثير، وكان عون بن عبد الله يقول: ما أنزل الموت كنه منزلته، ما قد غدا من أجلكم، مستقبل يوم لا يستكملها، وكن من مؤمل لغد لا يدركه، إنكم لو رأيتم الأجل ومسيره، بغضتم الأمل وغروره • وكان أبو بكر بن عياش يقول: لو سقط من أحلهم درهم لظل يومه يقول: إنا لله، ذهب درهمي وهو يذهب عمره، ولا يقول: ذهب عمري، وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات، ويحفظون الساعات، ويلازمونها بالطاعات • فقليل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنه ما مات حتى سرد الصوم • وكانت عائشة رضي الله عنها تسرد، وسرد أبو طلحة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة، وقال نافع: ما رأيت ابن عمر صائماً في سفره ولا مفطراً في حضره • قال سعيد بن المسيب: ما تركت الصلاة في جماعة منذ أربعين سنة • وكان سعيد بن جبيرة يختم القرآن في ليلتين • وكان الأسود يقوم حتى يخضر ويصفر، وحج ثمانين حجة • وقال ثابت البناني: ما تركت في الجامع سادنة إلا وختمت القرآن عندها • وقيل لعمر بن هانئ: لا نرى لسانك يفتر من الذكر فكم تسبح كل يوم؟ قال: مائة ألف، إلا ما تخطى الأصابع • وصام منصور بن المعتمر أربعين سنة وقام ليلها، وكان الليل كله يبكي فتقول له أمه: يا بني قتلت قتيلاً، فيقول: أنا أعلم بما صنعت نفسي • قال الجماني: لما حضرت أبو بكر بن عياش الوفاة بكت أخته، فقال: لا تبك، وأشار إلى زاوية في البيت، إنه قد ختم أخوك في هذه الزاوية ثمانية عشر ألف ختمة • قال الربيع: وكان الشافعي رضي الله عنه يقرأ في كل شهر ثلاثين ختمة، وفي كل شهر رمضان ستين ختمة سوى ما يقرأ في الصلوات، واعلم أن الراحة لا تنال بالراحة، ومعالي الأمور لا تنال بالفقر، ومن زرع حصد، ومن جد وجد • لله در أقوام شغلهم تحصيل زادهم، عن أهاليهم وأولادهم، ومال بهم ذكر المال عن المال في معادهم، وصاحت بهم الدنيا فما أجابوا شغلاً بمزادهم، وتوسلوا أحزانهم بدلاً عن وسادهم، واتخذوا الليل مسلكاً لجهادهم واجتهادهم، وحرصوا جوارحهم من النار عن غيهم وفسادهم، فيا طالب الهوى جز بناديبهم ونادهم:

أَحْيَا فُؤَادِي وَلَكِنَّهُمْ ... عَلَى صِيحَةٍ مِنَ الْبَيْنِ مَاثُورًا جَمِيعًا

حرمُوا راحة النَّومِ أَجْفَلَهُمْ ... وَلَقُوا عَلَى الزُّفَرَاتِ الصُّلُوعَا  
طُولَ السَّوَاعِدِ شَمُّ الْأُنُوفِ ... فَطَابُوا أَصُولًا وَطَابُوا فُرُوعَا  
أَقْبَلَتْ قُلُوبُهُمْ تَرَاعَى حَقَّ الْحَقِّ فَذَهَلَتْ بِذَلِكَ عَنِ مَنَاجَاةِ الْخَلْقِ • فَالْأَبْدَانُ بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا تَسْعَى، وَالْقُلُوبُ فِي رِيَاضِ  
الْمَلَكُوتِ تَرعى، نَازِلُهُمُ الْخَوْفُ فَصَارُوا وَالْهَيْنَ، وَنَاجَاهُمُ الْقَفَرُ فَعَادُوا، خَائِفِينَ، وَجَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَبَاتُوا سَاهِرِينَ،  
وَنَادَاهُمُ مَنَادَى الصَّلَاحِ، حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ، فَقَامُوا مَتَهَجِدِينَ، وَهَبَتْ عَلَيْهِمُ رِيحُ الْأَسْحَارِ فَتَنَقَّضُوا مُسْتَغْفِرِينَ،  
وَقَطَعُوا بِنَدِ الْمَجَاهِدَةِ فَاصْبَحُوا وَاصِلِينَ، فَلَمَّا رَجَعُوا وَقْتُ الْفَجْرِ بِالْأَجْرِ بَادَى الْهَجْرُ يَا خَيِّبَةَ النَّائِمِينَ •

## الفصل الرابع

### اذكُرْ الْمَوْتَ

إِخْوَانِي: أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ وَتَفَكَّرُوا فِي الْخِلَالِ بِنَاءِ اللَّذَاتِ، وَتَصَوَّرُوا مَصِيرَ الصُّورِ إِلَى الرِّفَاتِ، وَأَعْدُوا  
عُدَّةَ تَكْهِي فِي الْكَهَاتِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَسَلَطُ عَلَى ذَاكِرِ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا إِذَا غَفَلَ الْقَلْبُ عَنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ  
دَخَلَ الْعَدُوُّ مِنْ بَابِ الْغَفْلَةِ • قَالَ الْحَسَنُ: إِنْ الْمَوْتَ فَضَحَ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتْرِكْ لَذِي لُبٍّ بِهِ فَرِحًا • وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ تَمِيمٍ:  
مَنْ لَمْ يَرِدْهُ الْمَوْتُ وَالْقُرْآنُ، ثُمَّ تَنَاطَحَتْ عِنْدَهُ الْجِبَالُ لَمْ يَرْتَدِعْ • سَأَلَ ابْنَ عِيَاضَ عَنْ، مَا بَالُ الْآدَمِيِّ تُسْتَنْزَعُ  
نَفْسُهُ، وَهُوَ سَاكِتٌ، وَهُوَ يَضْطَرُّ مِنَ الْقَرِصَةِ؟ قَالَ: لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَوَقَّفَهُ • يَا بْنَ آدَمَ، مِثْلُ تِلْكَ الصَّرْعَةِ قَبْلَ أَنْ  
تَذُرَ كُلَّ غُرَّةٍ فَتَمْتَنِي الرَّجْعَةَ، وَتَسْأَلُ الْكُرَّةَ، كَمَ مِنْ مَحْتَضِرٍ تَمْتَنِي الصَّحَّةَ لِلْعَمَلِ هَيْهَاتَ حَقَّرَ عَلَيْهِ بُلُوغُ الْأَمَلِ أَوْ مَا  
يَكْفِي فِي الْوَعْظِ مَصْرَعُهُ، أَوْ مَا يَشْفِي مِنَ الْبِيَانِ مُضْجَعُهُ • • أَمَا فَاتَهُ مَقْدُورُهُ بَعْدَ إِمْكَانِهِ • • أَمَا أَنْتَ عَنْ قَلِيلٍ فِي  
مَكَانَةٍ • وَلَمَّا احْتَضَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قَالَ: وَاللَّهِ لَوُدِدْتُ أَنِّي عَبْدُ رَجُلٍ مِنْ تَهَامَةَ أَرعى غَنِيمَاتٍ فِي جِبَالِهَا وَأَنِّي لَمْ  
أَلِ • وَجَعَلَ الْمُعْتَصِدُ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ: ذَهَبَتْ الْحَيْلُ فَلَا حَيْلَةَ حَتَّى صَمِتَ •

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَجَلِيُّ: دَخَلْتُ عَلَى رَجُلٍ فِي النَّزْعِ فَقَالَ لِي: سَخَرْتُ بِي الدُّنْيَا حَتَّى ذَهَبَتْ أَيَّامِي، وَفِي الْحَدِيثِ:  
(أَمَا إِنْكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ؟! • يَا مَنْ قَدْ امْتَضَى بِجَهْلِهِ مَطَايَا الْمَطَالَعِ، لَقَدْ مَلَأَ الْوَاعِظُ فِي الصَّبَاحِ  
الْمَسَامِعَ؛ تَالَهُ لَقَدْ طَالَ الْمَدَى فَأَيْنَ الْمَدَامِعُ؟ أَيْنَ الَّذِينَ بَلَّغُوا الْمَنَى فَمَا لَمْ فِي الْمَنَى مَنَازِعَ، رَمَتْهُمُ الْمَنَايَا بِسَهَامِهَا فِي  
الْقَوَى وَالْقَوَاعِ، فَعَلِمُوا أَنَّ أَيَّامَ النِّعَمِ فِي زَمَانِ الْخَوَادِعِ، مَا زَالَ الْمَوْتُ يَلُورُ عَلَى الدَّوَامِ حَتَّى طَوَى الطَّوَالِعَ، صَارَ  
الْجُنْدَلُ فَرَاشَهُمْ بَعْدَ أَنْ كَانَ الْحَرِيرُ فِيمَا مَضَى الْمُصَاجِعِ، وَلَقُوا وَاللَّهِ غَايَةَ الْبِلَاءِ فِي تِلْكَ الْبِلَاقِعِ، جَمَعُوا فَمَا أَكَلُوا  
الَّذِي جَمَعُوا، وَبَنُوا مَسَاكِنَهُمْ فَمَا سَكُوا، فَكَأَنَّهُمْ بِمَا ظَنُّوا لَمَّا اسْتَرَا حَوَا سَاعَةَ ظَعْنُوا • لَقَدْ أَمَكَّنْتَ الْفُرْصَةَ أَيُّهَا  
الْعَاجِزُ، وَلَقَدْ زَالَ الْقَاطِعُ وَارْتَفَعَ الْحَاجِزُ، وَوَلَّحَ نُورَ الْهُدَى فَالْجَيْبُ فَاتَرَ، وَتَعَاطَمَتِ الرِّغَائِبُ وَتَفَاقَمَتِ الْجَوَائِرُ؛ فَأَيْنَ  
الْهَمِّ الْعَالِيَةِ، وَأَيْنَ النِّجَائِزِ؟ أَمَا تَخَافُونَ هَادِمَ اللَّذَاتِ وَالْمَنَى وَالْمَنَاجِزَ • أَمَا عَوَجَاجُ الْقَنَاةِ دَلِيلُ الْغَامِزِ • أَمَا الطَّرِيقُ  
طَوِيلٌ وَفِيهِ الْمَفَاوِزَ • أَمَا عِقَابُ الْعَنَابِ تَحْوِي الْهَزَاهِزَ • أَمَا الْقُبُورُ قَنْطَرَةُ الْعُبُورِ فَمَا لِلْمَجَاوِزِ • أَمَا يَكْفِي فِي التَّنْقِيسِ  
حَمْلُ الْجَنَائِزِ • أَمَا الْعَدَدُ كَثِيرٌ فَأَيْنَ الْمُبَارِزِ؟ أَمَا الْحَرْبُ صَعْبٌ وَالْهَلِكُ نَاجِزٌ، وَالْقَنَا مَسُوعٌ وَالطَّعْنُ وَاجِزٌ، وَالْأَمْرُ عَزِيزٌ  
وَالرَّمَاحُ الْبُوسُ نَوَازِكُ • تَالَهُ بَطَلَتِ الشُّجَاعَةُ مِنْ بَنِي الْعَجَائِزِ، وَتَرِيدُ إِصْلَاحَ نَادِكِ وَالْأَمْرُ نَاشِزُ • إِنْ لَمْ يَكُنْ سَبَقُ  
الصَّدِيقِ فَلْيَكُنْ تَوْبَةُ مَاعِزِ •

## الفصل الخامس

## ذِمُّ الدُّنْيَا

أيها العبد: تفكر في دنياك كم قتلت، وتذكر ما صنعت بأقرانك، وما فعلت، واحذرهما فإنهما عما لا بد منه قد شغلت، وإياك أن تساكنتها فإنها إن حلت رحلت • وروى عمار بن ياسر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (مرّاً بشاةٍ مبيتةٍ قد ألقاها أهلها، فقال: والذي نفسي بيده إن الدنيا أهون على الله من هذه على أهلها) • وكان يقول في صفة الدنيا: (أولها عناء، وآخرها فناء • حلالها حسابٌ وحرامها عقابٌ • من استغنى بها فُتِن، ومن افتقر إليها حزن، ومن سعى لها فاتته، ومن نأى عنها أتته، ومن نظر إليها أعمته، ومن بصر بها بصرتة) • وصفها بعض العلماء، فقال: جمّة المصائب، رتقة المشارب، لا تفي لصاحب • وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حمر الشيطان: من شربها لم يفق إلا بين عساكر الموتى، نادماً بين الخاسرين قد ترك منها لغير ما جمع، وتعلق بجبل غرورها فانقطع، وقدم على من يحاسبه على الفتيل والنقير والقطمير، فيما انقرض عليه من الصغير والكبير، يوم تزل بالعصاة القدم، ويندم المسئى على ما قدم • يا من حيات حياته بالآفات لو ادغ، وأغراضه المنقلبة إليها منقلبة زواتغ، وشياطين هواه بينه وبين ما هو له نوازغ، وسهام سهوه في هو دينه بوالغ قد جرحت الحجر على قلبه فأنساه الحجر الدماغ، إن وعظ فساه، وإن قوم فزاتغ، قلبه ملآن بالهوى، ومن التقى فارغ كأني بك، وسيف الممات في دم الحياة والغ، نازلك فانزلك بالنوى عن الأعالي النوابع، وتقضي التيامن نبات سلب الحلّى الصايغ، ومر إليك فمر عليك الشراب السايغ، وطمس شمس عزك الميراث النوازغ وخرق دروع المنيعات السدايغ، أين من جمع الأموال وحماها، وإها لمن جمعها واقتناها، تنهى أجله وما تنهى، كم سلبت الدنيا أقواماً أقواماً كانوا فيها وعادت عزهم أحلاماً أحلاماً، فتفكر في حالهم كيف حال، وانظر إلى من مال إلى مال، وتدبر أحوالهم إلى ماذا آل، وتيقن أنك لاحق بهم بعد ليال، عُمرِك في مدةٍ ونفسك معدود، وجمسك بعد ممالك مع دود، كم أمّلت أملاً فانقضى الزمان وفاتك، وما أراك تفتيق حتى تلقى وفاتك، فاحذر زلل قدمك، وخف طول ندمك، واغتنم وجودك قبل عدمك، واقبل نصحي لا تخاطر بملك •

## الفصل السادس

### قُمِ اللَّيْلَ واترك التكاثر

لله در أقوام هجروا لذيد المنام وتصلوا لما نصبوا له الأقدام، وانتصبوا للنصب في الظلام، يطلبون نصيباً من الإنعام، إذا جنّ الليل سهروا، وإذا جاء النهار اعتبروا، وإذا نظروا في عيوبهم استغفروا، وإذا تفكروا في ذنوبهم بكوا وانكسروا • قال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإنه قرينة إلى ربكم، ومغفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم) •

وفي المسند عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (عجب ربنا من رجلين: رجل تار عن وطائه ولخافه من بين حبه وأهله إلى صلاته، ورجل غزا في سبيل الله فأهزموا فعلم ما عليه في الفرار وما له في الرجوع فرجع حتى أهريق دمه) • قال أبو ذر رضي الله عنه: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي صلاة الليل أفضل؟ قال: نصف الليل وقليل فاعله) • قال داود عليه السلام: يا رب، أي ساعة أقوم لك؟ فأوحى الله إليه: يا داود، لا تقم أول الليل ولا آخره، ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو بي وأخلوا بك، وارفع إلى حوائجك • وروى عمر بن عبسة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل

الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة؛ فكن) • كان همام بن الحارث يدعو: اللهم ارزقني سهراً في طاعتك، فما كان ينام إلا هنيهة وهو قاعد، وكان طلوس يتقلب على فراشه ثم يدرجه ويقول: طير ذكر جهنم نوم العابدين • وقال القاسم بن راشد الشيباني: كان ربيعة نازلاً بيننا، وكان يصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته: يا أيها الركب المعرسون: أهذا الليل تنامون، ألا تقومون فترحلون، قال: فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع • فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القوم السرى • وكان كهمس يختم في الشهر تسعين ختمة • قال الضحّاك: أدركت قوماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة • يا منازل الأحباب: أين ساكنوك؟ يا بقاع الإخلاص: أين قاطنوك؟ يا مواطن الأبرار: أين عامروك؟ يا مواضع التهجد: أين زائروك؟ خلت والله الديار، وباد القوم، وارتحل أرباب السهر وبقي أهل النوم، واستبدل الزمان آكل الشهوات يا أهل الصوم:

كَفَى حَزَنًا بِالْوَالِهِ الصَّبَّ أَنْ يَرَى ... مَنَازِلَ مَنْ يَهْوَى مَعْطَلَةَ قَفَرَا

لله درّ أقوام اجتهدوا في الطاعة، وتاجروا ربهم فربحت البضاعة، وبقي الثناء عليهم إلى قيام الساعة، لو رأيتهم في الظلام وقد لاح نورهم، وفي مناجاة الملك العلام وقد تم سرورهم فإذا تذكروا ذنباً قد مضى ضاقت صلورهم، وتقطعت قلوبهم أسفاً على ما حملت ظهورهم، وبعثوا رسالة الندم والدمع سطورهم •

وَلَمَّا وَقَفْنَا وَالرَّسَائِلُ بَيْنَنَا ... دَمُوعٌ نَهَاهَا الْوَاجِدُونَ تَوَقُّفَا

ذَكَرْنَا اللَّيَالِي بِالْعَقِيقِ وَظِلُّهُ ... الْأَنْثِقُ فَقَطَعْنَا الْقُلُوبَ تَأْسَفَا

نَسِيمِ الصَّبَا إِنْ زُرْتَ أَرْضَ أَحِبَّتِي ... فَحَصَّهْمُ مَنِّي بِكُلِّ سَلَامِ

وَبَلَّغَهُمْ أَيْ بُرْهَنَ صِبَابَةٍ ... وَأَنْ غَرَامِي فَوْقَ كُلِّ غَرَامِ

وَإِنِّي لِكَيْفِي طُرُوقِ خِيَالِهِمْ ... لَوْ أَنَّ جُفُونِي مُنْتَعَتِ بِمَنَامِ

وَلَسْتُ أَبَالِي بِالْجَنَانِ وَلَا لَطَى ... إِذَا كَانَ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ مَقَامِي

وَقَدْ صُمْتُ مِنْ أَوْقَاتِ نَفْسِي كُلِّهَا ... وَيَوْمَ لِقَاكُمْ كَانَ فِطْرَ صِيَامِي

جال الفكر في قلوبهم فلاح صوابهم، وتذكروا فذكروا كذا ذكر إعجابهم، وحاسبوا أنفسهم فحققوا حسابهم، ونادموا للمخافة فأصحت دموعهم شرابهم، وترنموا بالقرآن فهو سمرهم مع أتراجهم، وكلفوا بطاعة الإله فانتصبا بجراهم، وخدموه مبتدلين في خدمته شبابهم، فيا حسنهم وريح الأسحار قد حركت أثوابهم، وحملت قصص غصصهم ثم ردت جوابهم •

## الفصل السابع

### اندم على ذنوبك

أيها العبد: تفكر في عُمر مضى كثيره، وفي قدم ما يزال تعثيره، وفي هوى قد هوى أسيره، وفي قلب مشتت قد قل نظيره، وتفكر في صحيفة قد اسودت، وفي نفس كلما نصحت صدت، وفي ذنوب ما تحصى لو أنها عدت • قال أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة • وقال أبو يوسف بن أسباط: الدنيا لم تخلق لتنتظر إليها، وإنما خلقت لتنتظر بها إلى الآخرة • وكان سفيان الثوري من شدة تفكيره يبول الدم • وقال أبو بكر الكتاني: روعة عند انتباه من غفلة، وانقطاع عن حظ نفس، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين •

وقال يحيى بن معاذ: لو سمع الخلائق صوت النائحة على الدنيا في الغيب من ألسنة الفنا تساقطت القلوب منهم حزناً، ولو رأت القلوب بعين الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوس خوفاً، ولو رأت القلوب بعين الإيمان نزهة الجنة لذابت النفوس خوفاً، ولو أدركت القلوب كنه محبة خالقها لتخلعت مفاصلها ولها، ولطارت الأرواح من أبدانها دهشاً، سبحان من أغفل الخليفة عن كنه هذه الأشياء وألهام بالوصف عن حقائق هذه الأنباء، يا ذاهباً في شططه، يا واقفاً مع غلطه، يا معترضاً لعقوبة الأحمد، ما سخطه؟ يا معرضاً عن الاعتبار سمعه، يا مطلقاً لسانه في غلطه، يا من لا يفرق بين صحيح القول وسقطه، أما له عبرة بقرطبة؟ أما هناك استدراك لفارطه، إلى متى على قبيح غطه؟ هلا عباً متاعه في سقطه، ألا حذر من في يد طاهي، كالا لو صحا لاتعظ وأثر فيه اللوم وازدجر، لكنه في غاية الغلظ، أفسدته المعاصي فلم يظهر الشيب، وانقرض لا يلتفت إلى من لام ولا من وعظ، سيندم على تضييع ما كان احتفظ، سيفر العلاج إذا زادت الكظظ، سيخرس لسان طال ما لفظ، من لم يبق من عمره إلا الأمل، وهو للوزر العظيم قد حمل وأثقل، سيعرض عليك من المعاصي مما دق وجل، تراعى الخلق وتنسى حقه عز وجل، قد سود صحيفته وملاها من قبيح العمل، حملت عليه الأمانة فتغافل عنها وضل، يدعى إلى الاستقامة، ولكما قوم ذل، لا يعرف ولا يقبل، قد حله رحلة، نحلة مناحلها من حل، قد غره مكر سوف، وأوثقه قيد لعل، إلام تمنى النفس ما لا تناله؟ وتذكر عيشاً لم يعد متصراً، وقد قالت السبعون للهري: دعاني لشأني واذهباً حيث شئتما.

## الفصل الثامن

### امقت نفسك وازدرها

إخواني: من تفكر في ذنوبه تاب ورجع، ومن تذكر قبيح عيوبه ذل وتواضع، ومن علم أن الهوى يسكن تصبر، ومن تلمح إساءته لم يتكبر، كان يزيد الرقاشي يقول: والهفاه، سبق العابدون وقطع بي، وكان قد صام اثنين وأربعين سنة، وقال حذيفة المرعشي: لو أصبت من يبعثني حقيقة، لأوجبت على نفسي حبة، فيا أيها العبد، عد على نفسك باللوم والمقت، واحذرهما، فكم ضيعت عليك من وقت؟ واندم على زمان الهوى، فمن كيسك أنفقت، ونادها يا محل كل بلية فقد والله صدقت، وروى وهب بن منبه: أن رجلاً صام سبعين سنة يأكل كل سنة إحدى عشرة تمر، وطلب حاجة من الله فلم يعطها، فأقبل على نفسه فقال: من قبلك بليت، لو كان فيك خيراً أعطيت، فنزل إليه ملك فقال: إن ساعتك هذه التي ازدرت فيها على نفسك خير من عبادتك، وقد أعطاك الله حاجتك، وقال فضيل بن عياض: أخذت بيد سفيان بن عيينة في هذا الوادي، فقلت له: إن كنت تظن أنه قد بقي على وجه الأرض شر مني ومنك، فبئس ما ترى، وقال رجل لأبي الحسن الموسمي: كيف أنت؟ فقال: خفيت أضراسي من أكل نعمة، وكل لساني من كثرة ما أشكوه.

يا واقفاً مع هواه وأغراضه، يا معرضاً عن ذكر عوارضه إلى أعراضه، يا غافلاً عن الموت وقد جد بمقراضه؛ وعلم اندباغ عمر أغراضه، سيعرف خبره إذ أحاط به أشد أمراضه وأخرج من خرات الديار وروضه، وألقى في لحد وحيد يخلو برضراضه، وعلم أنه باع أغراضه، يا من بالهوى كلامه وحديثه، وفي المعاصي قديمه وحديثه، وعمره في خطايا خفيفة وأثيثة، من له إذا أخذ في قبره من يغيثه، من له إذا حامت حول حماه الردى ليوثه، من له من كرب لا يرحم عطاشه، من له من جحفل لا يهدم كباشه، من له من لحدٍ لا يدفع حشاشه، من له من حدث عمله في فراشه، من له من قبرٍ فعل فيه معاشه، من له من موقف لا يرد بطاشه، من له يومئذ، ولا يقوى نجاشه، من له من حساب



عقاب رذاذه يردى ورشاشه، من يخلصه اليوم من هوى قد أسرته رشاشه، كم عاهد ونكث، كم آثر الهوى وعبث، كم غره غرير بالسحر قد نفث، تالله لقد بولغ في توييخه وما أكثرث، ولقد بعث إليه، ولقد بعث إليه النذير وما يرى من بعث، قلبه مشغول بالهوى ولسانه بالرفث، كلما أصبح معاهداً وأمسى نكث، ظاهر صحيح وباطن قبيح خبيث، سيندم يوم الضريح من القبيح حرث، سيكي ندمان الهوى يوم الظماً عند الله، سيعرف حيرة المعاصي إذا حل الحدث، سيرى سيره إذا ناقش السائل أو بحث، سيفرغ السن ندماً إذا نادى ولم بعث، عجباً لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث، القلب أسير بالحزن، والدمع غزير بالشجن، والفكر يذيب القلب، فما مثل الفكر على البدن؟!، كم بت ودمعي منهم لو يذراً في وجدى ثمن؟ وهاً لزمان طاب لنا وما أسرع ما ولى وفنى، ما غردت الوراقى على غصن إلا وأهاجت حزني، يا عيني أعيني قلباً قلقاً بالدمع؛ ليطفى نار الشجن أصبحت أسيراً في خطئي، وذنوبي قد ملأت بدني، أبكي زللي أبكي خللي، أبكي عملي كي يرحمني، من لي يوم الشدة يتقذني، من كرب الموت يخلصني، ونزلت وحيداً في جدث، قفر وكأني من لبن، أين الأقران وما قرنا؟ بالموت جميعاً في قرن، كم سرت على ربع لهم، وأطلت مسائلة الزمن يا دار حبيبي: أين هم عهدي بهم قبل الخن؟ قالت لي دارهم: دارت بهم أماني الزمن، أسرهم قوة فهم أسراء الحيرة والحزن، تركوا المال لغيرهم، ولم يصحبهم غير الكفن، تالله لقد سئلوا عما قد كانوا فيه من الفتن، فتيقظ قبل لحاقهم، من طول الرقدة والوسن.

## الفصل التاسع

### سارع إلى الجنة

إخواني: لقد خاب من باع بأقياً بفان، وخطر في ثوبي متوان، وتغافل عن أمر قريب كان، وضيع يوماً موجوداً في تأميل ثان، أما الجنة تشوقت لطالبيها، وتزينت لمبيديها، ونطقت آيات القرآن بوصف ما فيها، وملأت أسمع العباد أصوات واصفيها، كأنكم بالجنة وقد فتحت أبوابها، وتقسمها يوم القيامة أصحابها، وغنت ألسن الأماني قريب قباها.

بُشْرَهَا دَلِيلَهَا وَقَالَا: ... غَدَاً تَرَيْنَ الطَّلْحَ وَالْجِبَالَا

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: (قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: لبننة من ذهب ولبننة من فضة: ملاحظها المسك الأذفر، وحصباؤها الياقوت والجوهر، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه) • روى أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوماً: (ما ذكر الجنة إلا مشمر إليها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وفهر مطروز، وزوجة لا تموت، وحبور ونعيم، مقام أبداً، فقالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، فقال: قولوا: إن شاء الله) • روى سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وإن جنة الفردوس، وسطها وأعلاها سماء، وعليها يوضع العرش يوم القيامة، ومنها تفجر أنهار الجنة، قال رجل: فذاك أي وأمي يا رسول الله، فيها خيل؟ قال: نعم، والذي بعثني بالحق إن فيها خيلاً من ياقوت أحمر، يروث بين خلال ورق الجنة، يتراءون عليها، فجاء رجل فقال: بأي وأمي فذاك، هل فيها صوت؟ قال: نعم، والذي نفسي بيده إن الله عز وجل يوحى إلى شجرة في الجنة أن اسمعي عبادي الذين شغلهم ذكري في الدنيا عن عزف المزاهر والمزامير بالتسبيح والتكديس) •

يا نفس: بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور وقد تشققت  
وبالأمور وقد تحققت، وبوجوه المتقين، وقد أشرفت، وبرعوس العصاة وقد أطرقت • يا نفس: أما الورعون فقد  
جدلوا، وأما الخائفون فد استعلوا، وأما الصالحون فقد راحوا، وأما الواعظون فقد صاحوا • يا نفس: اتعبي قليلاً  
تستريحي في الفردوس كثيراً، كأنك بالعب قد مضى، وبحرصك من اللعب قد مضى، وثمر الصبر قد أثمر حلاوة  
الرضا، لا يطمعن البطال في إدراك الأبطال، هيهات أن يدرك البطل المجتهد من غاب حين النزال فما شهد حفت  
الجنة بالمكارة فلا يوصل إليها إلا بالمرض، كذلك كل محبوب يلذ، وكل عرض من غير مشقة، وإلا، متى لم يبعد  
على طالب المشقة: العلم لا يحصل إلا بالنصب، والمال لا يجمع إلا بالتعب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولا يلقب  
بالشجاع إلا بعد تعب طويل •

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقبال قتال

أيها العبد: إن عزمت فبادر، وإن هممت فتابر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر، من كان في الصف الآخر • سلع المجد  
كاسدة، وكأن قد غلت، ومراعى الفضل قريبة، وكأن قد علت، وكأنك بغايات الغفلات قد أنجلت، فأصبحت  
حلاوة البطالة من أفواه الغافلين قد رحلت، وأصبحت رايات المجاهدين قد حلت، وتفاوت في السباق مضمار  
وطين، كما تفاوت في الإحراق ماء وطين •

لا تحسب المجد ثمراً أنت آكله ... لا تبلغ المجد حتى تلغ الصبرا

فاصبر للبلايا فحينها يسير، وأثبت للرزيا فأجرها كثير، وأحسن قرى ضيف الهم بالصبر الغزير، وتجلد على الظماً  
فبين يديك ماء غير •

لا تجزعن من المنايا إذا أتت ... واصبر لما تأتي به الأقدار

وغدا الصور يجز ذيل سروره ... في جنة من تحتها الأثمار

فكأن قد انكشفت غيايات البلا ... وانجابت الآفات والأكدار

وجرى الجزوع لما جنى ثمر الأسي ... فجرى بلا أجر له المقدار

إني رأيت معاشراً لم يفهموا ... معنى الوجود فأصبحوا قد حاروا

دنياك داراً للبلايا مهتت ... ووراء ذلك إن عقلت نهار

## الفصل العاشر

### جاهد نفسك

أيها العبد: حاسب نفسك في خلوتك، وتفكر في انقراض مدتك، واعمل في زمان فراغك لوقت شدتك، وتدبر قبل  
الفعل ما يملى في صحيفتك، وانظر: هل نفسك معك أو عليك في مجاهدتك، لقد سعد من حاسبها، وفاز والله من  
حاربها، وقام باستيفاء الحقوق منها وطالبها، وكلما ونت عاتبها، وكلما تواقفت جنبها، وكلما نظرت في آمال  
هواها غلبها • قال عليه الصلاة والسلام: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها  
وتمنى على الله الأمان) • وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وطالبوا بالصدق  
في الأعمال قبل أن تطالبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدأ؛ وتزينوا للعرض  
الأكبر: (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) • وقال الحسن البصري رحمه الله: (أيسر الناس حساباً يوم القيامة

الذين حاسبوا أنفسهم لله عز وجل في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم، فإن كان الدين لله هموا بالله وإن كان عليهم أمسكوا، وإنما يتقل الحساب على الذين أهملوا الأمور، فوجدوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذر فقالوا: (يَا وَيَلَنَّا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) • وقال أبو بكر البخاري: (من نفر عن الناس قل أصدقاؤه، ومن نفر عن ذنوبه طال بكاؤه، ومن نفر عن مطعمه طال جوعه وعناؤه، ونقل توبة بن المعلم أنه نظر يوماً وكان محاسباً لنفسه، فإذا هو ابن ستين إلا عاماً، فحسبها أياماً، فإذا هي إحدى وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتي! ألقى المليك إحدى وعشرين ألف ذنب وخمسمائة ذنب، فكيف ولي في كل يوم عشرون ألف ذنب؟ ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا هاتفاً يقول: يا لها من ركضة إلى الفردوس الأعلى •

إخواني: المؤمن مع نفسه لا يتوان عن مجاهدتها، وإنما يسعى في سعادتها، فاحترز عليها واغتم لها منها، فإنها إن علمت منك الجدد جدت، وإن رأيتك مائلاً عنها صدت، وإن حثها الجدد بلحق الصالحين سعت وقفت، وإن تواني في حقها قليلاً وقفت، وإن طالها بالجد لم تلبث أن صفت وأنصفت، وإن مال عن العزم أماتها، وإن التفت عربدت، من صبر على حر المجلس خرج إلى روح السعة، من رأى التناهي في المبادي سلم، ومن رأى التناهي هلك؛ لأن مشاهدة التناهي تقصير أمله، ومشاهدة المبادي في التناهي تسوف عمله، وفي الجملة: من راقب العواقب سلم • يا هذا: هلال الهدى لا يظهر في غيم الشيع، ولكن يبدو في صحو الجوع وترك الطمع، واحذر أن تميل إلى حب الدنيا فتقع، ولا تكن من الذي قال: سمعت وما سمع، ولا ممن سوف يومه بغده فمات ولا رجع، كلا ليندمن على تفریطه وما صنع؛ وليسألن عن تقصيره في عمله وما ضيع، فيا لها من حسرة وندامة وغصة تجرع، عند قراءة كتابه وما رأى فيه وما جمع، فبكى بكاء شديداً فما نفع، وبكى محزوناً لما رأى من نور المؤمن يسعى بين يديه وقد سمع، فلا ينفعه الحزن ولا الزفير ولا البكاء ولا الجزع •

## الفصل الحادي عشر

### احذر النار

إخواني: لقد خاب من أثر شهوة من حرام، فإن عقباها تجرع حميم آن، وخسر - والله - من أطلق نفسه فيما تريد، بعد أن سمع الزبانية وأغلال الحديد، وهلك كل الهلك وبار كل البوار؛ من اشترى لذة ساعة بعذاب النار • قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوقد على النار ألف سنة حتى اجمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة) • وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ناركم هذه مما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من جهنم) • وروى ابن مسعود رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، يجرونها) • وقال وهب بن منبه: إذا سيرت الجبال، فسمعت حسيس النار، تقيضها وزفيرها وشهيقها، صرخت الجبال كما تصرخ النساء، ثم يرجع أوائلها على أواخرها يدق بعضها بعضاً • وفي المسند عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يعظم أهل النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم وعاتقه سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد) • وروى الزهري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيلهب ما في جوفه، حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر ثم يعاد كما كان) • وقال أبو موسى: أهل النار سيكون

الدموع حتى تنقطع ثم يكون الدماء حتى لو أرسلت فيها السفن لجرت • لله در أقوام أذهبوا أعمارهم في طلبي  
وأتبعوا أعضاعهم في فرضي وواجبي وقطعوا قواطعهم لأجل التعلق بي، وحلموا عن الجهال خوفاً من غضبي، فإذا  
مروا على النار، قالت: جرياً يا مؤمن قد أطفأ نورك لمبي • إذا رأيت النار من جاهد بالخير، وما خافت خافت، وإذا  
شاهدت نفوساً طال ما صافت صافت، وإذا عاينت أجساماً ما نبتت من الحرام وعافت عافت • هلا تشبهت يا هذا  
بمؤلاء القوم، هلا تنبهت من هذا الرقاد والنوم، وأنت وقت العشاء نائم، وقلبك في حب شهوات البهائم هائم، قل  
للذي ألجأه عاجل لهو عن حظه، يحكى البهائم هائماً: أمسنا الفنا، خذ حكمة تحصنا بها؛ فانظر ولا تبغ الفنا يا نائم،  
يا هذا: احب يُطرَدُ فلا يزول وأنت تُدعى فلا تجب • كم ليلة ينادى - وأنت غائب - : هل من سائل؟ هل من  
تائب؟

فَإِنْ تَمَعُوا مِنِّي السَّلَامُ فَإِنِّي ... لَعَادٍ عَلَى حَيْطَانِكُمْ فُؤْسَلَّمُ  
رحم الله عظماً طالما نصبت وانتصبت، فإذا جن الليل عليهم فتمكن وثبت وثبت، إن ذكرت عدله رهبت وهربت،  
وإن تفكرت فضله فرحت وطربت، اعترف عن طاعته أنها قد أذنت، وقامت شاكرة لمن جمعها على إحسانه فنبت،  
لاحت لها ذنوبها فبكت عليها وندبت وصاحت بما ألسن الغفران؛ فاهترت وربت:  
قِفْ بِالذِّيارِ فَهَذِهِ آثَارُهُمْ ... تَبْكِي الأَحِبَّةَ حَسْرَةً وَتَشْوُقًا  
كَمْ قَدَ وَقَفْتُ بِهَا أُسْأَلُ مُخْبِرًا ... عَنِ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُشْفِقًا

فَأَجَابَنِي دَاعِي الهوى فِي رَسْمِهَا ... فَارْقَتْ مِنْ تَهْوَى فَعَزَّ المَلْتَمَى  
طَرَقَ الخيالَ وَقَالَ لِي يَا مُدَّعِي ... أَتَنَامُ بَعْدَ فِرَاقِ جيرانِ اللقي؟  
وحياتكم قسماً بأني صادق ... لا طاب لي من بعدكم فيكم بقا  
يا سادة مذحلوا أجهلهم ... ما أورثوني بعلمهم إلا الشقا  
أترى الأرض خلت منهم أم لم ترهم، كلاً لو وصفت أعمالهم عرفناهم، أما الأحياء منهم، فالقطرة تجري مجراهم، أما  
أموالهم فمعنى الأحبار معانهم • قف يا هذا على قبورهم ونادهم، واستشوق ربح فضلهم، فهل المعاني في اجتهدهم  
ضائر الريحان معهم في وسادهم:

كَمْ قَدَ وَقَفْتُ وَأَحْبَابِي بِمَنْزِلَةٍ ... تَبَيْتُ يَقْظانًا وَلهَانًا وَأَهْلانًا  
فهاجها حين حيانا النسيم بما ... سقيا وألقى بالجرع حيناً  
تَبْكِي فَيُسْعَلُونَا كورَ المَطِيِّ فَهَلْ ... نَحْنُ المُشَوَّقُونَ فِيهَا أَمْ مَطايانا  
ولا من قَطَّرَ الأشياءَ ما وَجَدَتْ ... كوجدنا العيس بل رقت لشكوانا

## الفصل الثاني عشر

### عليك بالخوف من الله

إخواني: من علم عظمة الإله زاد وجله، ومن خاف نعم ربه حسن عمله، فالخوف يستخرج داء البطالة ويشفيه،  
وهو نعم المؤدب للمؤمن ويكفيه • قال الحسن: صحبت أقواماً كانوا أحسنائهم أن تُردَّ عليهم أخوف منكم من  
سيئاتكم أن تعذبوا بها • ووصف يوسف بن عبد المحسن فقال: كان إذا أقبل كأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس  
كأنه أسير من يضرب عنقه، وإذا ذكرت النار فكأنما لم تخلق إلا له • وكان سميط إذا وصف الخائفون يقول: أتاهم

من الله وعيد وفدهم، فناموا على خوف وأكلوا على تنغصٍ • واعلم أن خوف القوم لو انفرد قبل، غير أن نسيم الرجاء يروح أرواحهم، وتذكر الإنعام يحيى أشباحهم • ولذلك روى: (لَوْ وُزِنَ خَوْفُ الْمُؤْمِنِ وَرَجَاؤُهُ لَاعْتَدَلَ) • فالخوف للنفس سائق، والرجاء لها قائد، إن وت على قائدها حتها سائقها، وإن أبت على سائقها حركها قائدها مزيج الرجاء يسكن حر الخوف، وسيف الخوف يقطع سيف - سوف - وإن تفكر في الإنعام شكر وأصبح اللهم قد هجر، وإن نظر في الذنوب حذر، وبات جوف الليل يعتذر، وأنشد:

أَطَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةٌ ... أَضَاءَتْ لَنَا بَرَقًا وَأَمْطَرَتْنَا  
فَلَا غِيَمَهَا فَيَأْتِسُّ طَامِعٌ ... وَلَا غَيْثَهَا بَاقِي، فيروى عطاشها

## الفصل الثالث عشر

### عليك بحب الله

إخواني: الموت في طريق الطلب: خير من العطب في طريق البطالة، ما هذا؟! أدم السهر والصوم، وخل لأربابه طول النوم، وشم في لحاق القوم، فإذا وصلت إلى دوائك: أنخت بجانب (وَيَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ) • يا هذا: عليك بإدمان الذكر، لعل ذكرك القليل ينمى ذكره الجليل (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)؛ أنا جليس من ذكرني • لا تعجز عن حفر ساقية وإن ربت، فإنك إذ ألحقتها بساحل البحر فاض من ماء البحر إليها فصارت دجلة، أخلص في ذكرك لعله يذكرك • روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: حمدان، فقال صلى الله عليه وسلم: (سيروا سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) • روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: (أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه) • وقال أبو الدرداء: الذين ألسنتهم رطبة بذكر الله تعالى يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك • يا هذا: من علامات المحب انزعاجه عند ذكر محبوبه • لو أحببت شخصاً من أهل الدنيا فسمعت باسمه لا تزعج باطنك، أما سمعت أن مجنوناً أحب مخلوقاً فلما ذكر انزعج، فقال:

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْحَيْفِ مِنْ مَنِي ... فَهَيْجَ أَحْزَانِ الْفَوَادِ وَلَمْ يَدِرْ  
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بَقَلْبِي طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وهذا ذكر الله يُنلَى عليك وما تتغير، وكم تسمع من أوامره ونواهيهِ ولا تتدبر، وقد يسره الكريم على من اجتهد فيه، وما عسر، وكم من نظر فيه حقيقة النظر وتبصر، وعمل ما أمره وترك ما نهى عنه في العمل والقول وتحرر، وكلما نظر في عمله رأى أنه مقصر فيه تفكر، لا يلتذ بطعام ولا شراب ولا نوم إلا ذكر وتذكر، أما سمعت قوله في الكتاب العزيز مسطراً إخباراً عنهم في ذكرهم له قولاً بليغاً مفسر: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ) (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ) فشكرهم على ذلك وستر، بأنه راض عنهم يوم تشقق السماء وتتفطر: (يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) ويبقى العاصي نادماً على تفريطه مُحسراً، مقبل بحمل خطاياهِ وفي ذيل ذنوبه معشر، فإذا دعى لقراءة كتابه رأى ما فيه من السيئات تحير ويرى غيره قد أمر به إلى النار مسحوب محرر، فيندم فلا ينفع، ويبكي فلا يُسمع ولا يُرحم، ولا يعذر، فالعذاب الشديد لمن كد وطغى وتجبر، ونصحتك، فالتوبة التوبة • • فعسى بعد الكسر تجبر، فهو المعين لمن لجأ إليه، فله الحمد على ما قضى وقدر •

## الفصل الرابع عشر

### تفاوت النفوس في الخير والشر

روى أبو موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن الله خلق آدم من قبضة قبضت من جميع الأرض، فجاءوا بنوا آدم على قدر الأرض: منهم الأبيض، والأحمر، والأسود، وبين ذلك، والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن وبين ذلك) • وجاء في حديث آخر: (إن الله خلقهم في ظلمة، فرش عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل) • فهذا يدل على أن من خلق من الصفا صفا له، ومن خلق من الكدر كدر عليه فلم يصلح للقرب والرياضة، وإنما يصلح عبد نجيب • خلق إبليس من ماء غير طاهر، فكانت خلعة العبادة عليه عارية، فسخن ماء معاملته بإيقاد نار الخوف، فما عرض عنه الموقد عاد إلى برودة الغفلة • وخلق عمر من أصل نقي، فكانت أعمال الشرك عليه كالعارية، فلما عجب نيران حمية الجاهلية أثرت في طبعه إلى أن فنى مدد حظها بفناء مدة تقدير إعراضه، فعاد سخنه إلى برد العرفان:

وكلُّ إلى طبعه عائدٌ ... وإن صدَّهُ الصدُّ عن قصده

كما أن الماء من بعد إسخانه ... سريعا يعود إلى برده

يا هذا: لاحت عقبة المعصية لآدم وإبليس، فقال لهما لسان الحال: لا بدّ من سلوكها، فسلكا يتخبطان في ظلامها؛ فأما آدم فانكسر قلبه في طريقه، وبكى لصعوبة مضيّقه، فهتف به هاتف اللطف: لا تجزع أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي؛ وأما إبليس فجاء ضاحكاً معجباً بنفسه، فنار الكبر من قلبه، فتكاثرت ظلمة طريقه، فلما ارتفعا إلى رأس العقبة ضرب (بَيْنَهُمْ بَسُورٌ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)، فقال إبليس: يا آدم كنا رفيقين في عقبة المعصية، فكيف افتراقنا؟ فنادى منادى الأزل: نحن قَسَمْنَا •

## الفصل الخامس عشر

### روض نفسك

يا هذا: طهر قلبك من الشوائب، فاحبة لا تلقى إلا في قلب طاهر، أما رأيت الزارع يتخير الأرض الطيبة ويسقيها ويروبها ثم يثيرها ويقلبها، وكلما رأى حجراً ألقاه، وكلما شاهد ما يؤدي نجاه، ثم يلقي فيها البذر ويتعاهلها من طوارق الأذى؟ وكذلك الحق عز وجل إذا أراد عبداً لوداده حصد من قلبه شوك الشرك، وطهره من أوساخ الرياء والشك، ثم يسقيه ماء التوبة والإنابة، ويثيره بمسحاة الخوف والإخلاص، فيستوي ظاهره وباطنه في النقى، ثم يلقي فيه بذر الهدى، فيثمر حب المحبة، فحينئذ تحمد المعرفة وطناً ظاهراً، وقوتاً ظاهراً، فيسكن لب القلب، ويثبت به سلطانها في رستاق البذر، فيسري من بركاتها إلى العين ما يفضها عن سوى الحبوب، وإلى الكف ما يكفها عن المطلوب، وإلى اللسان ما يحبسها عن فضول الكلام، وإلى القدم ما يمنعها من سرعة الإقدام، فما زالت تلك النفس الطاهرة راضية العلم، ونديمها الحلم، وسجنها الخوف، وميدانها الرجاء، وبستانها الخلوة، وكثرها القناعة وبضاعتهما اليقين، ومركبها الزهد، وطعامها الفكر، وحلواها الأنس، وهي مشغولة بتوطئة رحلها لرحيلها، وعين أملها ناظرة إلى سبيلها، فإن سعد حافظها، فالصحيفة نقيه، وإن جاء البلاء فالنفس صابرة تقيه، وإن أقبل الموت وجدها من الغش خلية، فيا طوبى لها إذا نوديت يوم القيامة: (يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً) •

## الفصل السادس عشر

### خالف هواك

لله درُّ نفس تطهرت من أجناس هواها، وتجليت جلابب الصبر عند دنياها، وشغلها ما رأى قلبها عما رأت عينها، وإن مالت إلى الدنيا فماها نُهاها، وإن مالت إلى الهوى شفاها شفاها، سهرت تطلب رضى المولى فرضى عنها وأرضاهها، وقامت سوق الجاهدة على سوق هداها، فباعت حرصها بالقتاعة فظفرت بغناها، وفوقت سهام العزائم إلى أهداف الخارم تبتغي علاها، ورمت نجائب الأسحار فساقتها حادى الاستغفار إذ عناهها؛ وقطعت بيداء الجدد بألة المستعد فيبلغت مُناها، فمن أجلها ينزل القطر وينبت الزرع من جزاهها، ولولاها لم تثبت الأرض بأهل دنياها. وما أعطى الصباية ما استحقّت ... عليه ولا قضى حق المنازل ملاحظها بعين غرّى غيرى ... وزاتراها بجسم غير ناحل

## الفصل السابع عشر

### تبصر في نفسك

يا من نسي العهد القديم وخان، من الذي سواك في صورة الإنسان من الذي غذاك في أعجب مكان؟ من الذي بقدرته استقام الجنمان؟ الذي بحكمته أبصرت العينان؟ من الذي بصنعتة سمعت الأذنان؟ من الذي وهب العقل فاستبان للرشد وبان؟ من الذي بارزته بالخطايا وهو يستر العصيان؟ من الذي تركت شكره فلم يؤاخذ بالكفران؟ إلى كم تخالفتي وما يصبر على الخلاف الأيون، وتعاملني بالعدو الذي لا يرضاه الإخوان، وتنفق في خلالي ما عزّ عندك وهان، ولو علم الناس منك ما أعلم: ما جالسوك في مكان، فارجع إليّ في ذلك فأنا المعروف بالإحسان:   
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبُّ إلّا للحبيب الأوّل  
كم منزل في الأرض يألّفه الفتى ... وحينه أبداً أوّل منزل  
يا مبارزاً بالقبيح مهد عنرك، يا مواصلاً تقض العهود جانب عنرك، يا مديماً للتواني تدبر أمرك، يا مؤثراً ما يفني على ما يبقى خالفت خبرك، يا لاهياً في أيام العوافي والله ما تترك، يا واقفاً مع الأمانى ضيعت عمرك، يا فارحاً بقصره تذكر قبرك، يا حاملاً أثقال الذنوب هلا خففت ظهرك؟ سار الصالحون إلى ذكرنا وآثرت هجرك، وسمعت سيرهم وضيعت أجرك. إن أردت صحبة المتقين فاشرح لليقين صدرك، وإن أحببت حلاوة العواقب فاستعمل صبرك، إن حلا شراب مناجاتنا فبدد حمرك، إن طاب لك سماع ذكرنا فاكسر زمرك، اعتبر عن خل الثرى والكفان، وتفكر في البلا، وتذكر ذاك الرفاق فما بينك وبين هذه الآفات إلا أن تعين الوفا وفات.

## الفصل الثامن عشر

### تذكر يا عامل

يا من له قلبٌ ومات، يا من كان له وقت وفات، أشرف الأشياء قلبك ووقتك، فإذا أهملت قلبك وضيعت وقتك: فقد ذهبت منك الفوائد، أو كنت تبكي على ما فات فابك على وقتك:

وَيَكِي عَلَى الْمَوْتَى وَيَتْرُكُ نَفْسَهُ ... وَيَزَعُمُ أَنَّ قَدْ قَلَّ عَنْهَا عَزَاؤُهُ  
وَلَوْ كَانَ ذَا رَأْيٍ وَعَقْلٍ وَفِطْنَةٍ ... لَكَانَ عَلَيْهِ لَا عَلَيْهِمْ بُكَاءُؤُهُ  
رُئِيَ سَمْنُونَ يَوْمًا عَلَى شَاطِئِ دَجَلَةَ وَيَدُهُ قَضِيبٌ يَضْرِبُ بِهِ فَخِذَهُ حَتَّى تَبْدُدَ لَحْمَهُ وَهُوَ يَقُولُ: كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشَ بِهِ  
ضَاعَ مِنِّي فِي تَقْلِبِهِ، رَبُّ فَارِدَدَةَ عَلَى، فَقَدْ عِيلَ صَبْرِي فِي تَطْلِبِهِ، وَأَغَثَ مَا دَامَ لِي رَمَقٌ يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ، ابْنُكَ  
عَلَى وَقْتٍ كَانَ قَدْ صَفَا، وَعَلَى قَلْبٍ صَارَ كَالصَّفَا، وَعَلَى زَمَانٍ تَبَدَّلَ فِيهِ الْوَصْلُ بِالْجَفَا، وَعَلَى رُبْعٍ خَلَا مِنَ الْيَقِظَةِ  
وَعَفَا:

مَنَازِلَ كُنْتُ أَهْوَاهَا وَأَلْفُهَا ... أَيَّامَ كُنْتُ عَلَى الْأَيَّامِ مَنْصُورًا  
مَا تَتَوَفَّى فِي سَمِينِ بَدَنِكَ حَتَّى نَسِيْتَ إِدْرَاجَكَ فِي كَفَنِكَ، وَلَا مَنَعَتْ نَفْسَكَ بِمَوَاعِيدِ الْمُنَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَسْرَكَ حُجْبَ  
الْهُوَى، أَمَا وَعَظَكَ الزَّمَانُ مِنْ بَسْطِهِ وَقَبْضِهِ؟ أَمَا أَجْدَ لَكَ بِمَجْدِيدِ بَعْدِ الْإِعْتِبَارِ بَعْضَهُ، أَمَا تَدْرِكُ الْحَيْنَ مِنْ طَوْلِهِ  
وَعَرْضِهِ، يَا عَجَبًا كَيْفَ التَّنَدُّ حَامِلٍ بِغَمْضَةٍ؟ وَكَمْ طِيلَ يَوْمٌ مَا أَدَّى بَعْضَ فَرْضِهِ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْمَمَاتَ وَالْحِسَابَ  
أَمَامَكَ فَتَهِيًا لِلرَّحِيلِ، وَأَصْلَحَ خِيَامَكَ، وَاحْفَظْ مَقَالَتِي وَاقْطَعْ قَطْعَ الْمُدَى مَدَامَكَ، وَاجْتَهِدْ أَنْ تَنْشُرَ الْإِخْلَاصَ فِي  
الْحِلِّ إِلَّا عَلَى أَعْلَامِكَ، وَصَلِّ صَلَاتَكَ فِي الدَّجَى، وَهَجِرْ لِلْمَنَامِ مَنَامَكَ، وَلَا تَتْرِكْ وَلَوْ بَتَ اللَّيْلِ عَاصِيًا صِيَامَكَ،  
وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ وَسَمْعَكَ، وَإِنْ قَلَا مِنْ لَامِكَ، وَأَفَقْ فِي زَمَانِ الْإِمْكَانِ قَبْلَ انْتِائَاتِ الْعَرَى غَرَامَكَ، وَاقْطَعْ بِسَيْفِ النُّقَى  
كَمَا يَقْطَعُ الْكَلَامُ كَلَامَكَ، وَإِيَّاكَ وَالْقَتُورَ فَإِنِّي أَرَى الدَّوَاءَ دَوَامَكَ.

## الفصل التاسع عشر

### الفائزون

لِلَّهِ دَرُ أَقْوَامٍ أَقْبَلُوا بِالْقُلُوبِ عَلَى مَقْلِبِهَا، وَأَقَامُوا النُّفُوسَ بَيْنَ يَدَيْ مُؤَدِّبِهَا، وَسَلَمُوهَا إِذَا بَاعُوهَا إِلَى صَاحِبِهَا،  
وَأَحْضَرُوا الْآخِرَةَ فَنَظَرُوا إِلَى غَائِبِهَا، وَسَهَرُوا اللَّيَالِيَّ كَأَنَّهُمْ وَكَلُّوا بِرِعْيِ كَوَاكِبِهَا، وَنَادَوْا أَنفُسَهُمْ صَبْرًا عَلَى نَارِ  
حَطْبِهَا، وَمَقَعُوا الدُّنْيَا فَمَا مَالُوا إِلَى مَلَاعِبِهَا، وَاشْتَاقُوا إِلَى لِقَاءِ حَبِيبِهِمْ فَاسْتَطَالُوا مَدَّةَ الْمَقَامِ بِهَا.  
إِذَا كُنْتُ قُوَّتَ النَّفْسِ ثُمَّ هَجَرْتُهَا ... فَكَمْ تَلَبَّثْتُ النَّفْسَ الَّتِي أَنْتَ قُوَّتَهَا؟  
سَتَبَقَى بَقَاءَ الضَّبِّ فِي الْمَاءِ أَوْ كَمَا ... يَعْيشُ بِيَدَاءِ الْمَهَامَةِ حَوْثَهَا  
بَعْضُ الْعَابِدَاتِ كَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمَّمْتَ الْحَيَاةَ حَتَّى لَوْ وَجَدْتَ الْمَوْتَ يَبَاعُ لَاشْتَرَيْتَهُ شَوْقًا إِلَى اللَّهِ وَحُبًّا لِلْقَائِهِ،  
فَقِيلَ لَهَا: عَلَى ثِقَةٍ أَنْتَ مِنْ عَمَلِكِ؟ قَالَتْ: لَا وَاللَّهِ؛ لِحُبِّي إِيَّاهُ وَحَسَنِ ظَنِّي بِهِ، أَفْتَرَاهُ يَعْذِبُنِي وَأَنَا أَحِبُّهُ:  
يَا نَاطِرَ الْعَيْنِ قُلْ هَلْ نَاطَرْتَ عَيْنِي ... إِلَيْكَ يَوْمًا وَهَلْ تَدْنُو مِنِّي الْيَوْمَ  
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ ك ... طَائِرٌ سَلَبُوهُ مِنَ الْجَنَاحِينَ  
وَلَوْ قَلْبِي رَكِبْتَ الرِّيحَ نَحْوَكُمْ ... فَإِنَّ بُعْدِي عَنْكُمْ قَدْ حَنَّ حِينَ  
لِلَّهِ دَرُ أَرْوَاحٍ تَشْتَاقُ إِلَى رُوحِ قَرِيبَةٍ، وَتَلْتَذُّ عِنْدَ ابْتِلَائِهِ بِوَقْعِ ضَرْبَةٍ، وَيَطُولُ عَلَيْهَا الزَّمَانُ شَوْقًا إِلَيْهِ لِحُبِّهِ، إِنْ سَأَلْتَ  
عَنْ صِفَاتِهِمْ، فَكُلٌّ مِنْهُمْ مَخْلُصٌ لِرَبِّهِ مَجْتَهِدٌ فِي طَاعَتِهِ، خَائِفٌ مِنْ عَتَبِهِ، قَائِمٌ عَلَى نَفْسِهِ بِاسْتِيفَاءِ الْحَقِّ مِنْهَا عَلَى قَلْبِهِ  
وَأَنْشَدَ:

كَيْفَ يَقَعْدُ رَقِيبٌ مُشْتَاقٌ بِمَرْكَةِ ... إِلَيْكُمْ الْخَافِقَانِ الشُّوقِ وَالْأَمَلِ  
فَإِنْ نَهَضْتَ فَمَا لِي غَيْرُكُمْ وَطَر ... وَإِنْ قَعَدْتَ فَمَا لِي عِنْدَكُمْ شُغْلُ



لو كان لي يدٌ ما اخترتُ غيركم ... فكيف ذاك وما لي غيركم بدل  
ولم تعرض الأقوام بعدكم يستأ ... ذنونٌ على قلبي فما وصلوا

## الفصل العشرون

### سارع إلى التوبة والإجابة

أيها العبد: راقب من يراك على كل حال، وما زال نظره إليك في جميع الأفعال، وطهر سرك فهو عليم بما يخطر  
بالبال، المراقبة على ضربين، مراقبة الظاهر لأجل من يعلم، وحفظ الجوارح عن رذائل الأفعال، واستعمالها حذراً ممن  
يرى، فأما مراقبة الباطن فمعناها أدب القلب من مساكنة خاطر لا يرضاه المولى، وأجد السير في مراعاة الأولى، وأما  
مراقبة الظواهر فهي ضبط الجوارح عن رذائل الأفعال، واستعمالها في معالي الأعمال، فمن كان مقامه المراقبة فحال  
الحاسية . قال سرى: الشوق والأنس يرفرفان على القلب فكان هناك الإجلال والهيبة حلا ولا رحلاً، ومن ظهر  
الخشوع على قلبه دخل الوقار على جوارحه . قال حاتم الأصم: إذا عملت فانظر نظر الله إليك، وإذا شكرت  
فاذكر علم الله فيك .

وقال أبو الفوارس الكرماني: من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة،  
وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال لم تخطئ، فله فراسة:

كان رقيباً منك يرعى خواطري ... وآخرٌ يرعى ناظري ولساني  
فما نظرت عيناى بعدك منظرأ ... لعمرك إلاً قلت: قد رمقاني  
ولا بدرت من في بعدك لفظة ... لغيرك إلاً قلت: قد رمقاني  
ولا خطرت في ذكر غيرك خطرة ... على القلب إلاً عرجا بعنان  
وفتيان صدق قد سمعت كلامهم ... وعفف عنهم خاطري وجناني  
وما اللهر أسلاً عنهم غير أنني ... أراك على كل الجهات تراني

## الفصل الحادي والعشرون

### ابعد عن المعاصي

إلى متى تميل إلى الزخارف، وإلى كم ترغب لسماع الملاهي المعازف، أما آن لك أن تصحب سيداً عارفاً، قد قطع  
الخوف قلبه، وهو على علمه كالكف، يقطع ليله قياماً، وفماره صياماً، لا يميل ولا آنف، دائم الحزن، والبكاء متفرغ  
له، ومنه خائف، ومع ذلك يخشى القطيعة والانتقال إلى صعب المتالف، وأنت في غمرة هواك وعلى حب دنياك  
واقف، كأني بك وقد هجم عليك الحمام العاسف، وافترسك من بين خليلك وصديقك المؤلف، وتخللى عنك  
حبيبك وقريك ومن كنت عليه عاطف، لا سيتطيحون رداً ما نزل بك، ولا تجد له كاشف، وقد نزلت بفناء من له  
الرحمة والإحسان واللطائف، فلو عاتبك لكان عتبه على نفسك من أخوف المخاوف، وإن ناقشك في الحساب،  
فأنت تألف، أين مقامك من مقام الأبطال يا بطل، يا كثير الزلل والخطايا، يا قبيح الفعال، كيف قنعت لنفسك

بخساسة الدون يا معنون، وغرتك أمانيك بحب الدنيا يا مفتون، هلا تعرضت لأوصاف الصدق فاستحليت بها  
القالب الحق: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ) إلى متى أنت مريض بالزكام؟ ومتى تستشق ريح قميص يوسف عليه  
السلام يا غلام؟ لعله يرفع عن بصيرتك حجاب العمى، وتقف متذلاً على باب إله الأرض والسما، خرج قميص  
يوسف مع يهوذا من مصر إلى كنعان، فلا أهل القافلة علموا بريجه، ولا حامل القميص علم، وإنما قال صاحب  
الوجد: (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ)، كل واحد منكم في فقد قلبه كيعقوب في فقد يوسف، فليصب نفسه في مقام  
يعقوب، ويتحسر وليك على ما سلف، ولا ييأس، كيف طريق التحسس قطع مرحل الليل وركوب نجائب العزم  
إنشاء بعير الجسم ومصاحبة رفقة الندم والمستغفرين بالأسحار •

## الفصل الثاني والعشرون

### بعض ثمرات الطاعة

إخواني: من أراد دوام العافية فليقت الله، ما أقبل مقبلاً عليه إلا وجد كل خير لديه، ولا أعرض معرض عن طاعته إلا  
وتعثر في ثوب غفلته:

وَاللَّهِ مَا جِئْتُكُمْ زَائِراً ... إِلَّا الْأَرْضُ تُطْوَى لِي  
وَلَا انْتَنَى عَزْمِي عَنْ بَابِكُمْ ... إِلَّا تَعَثَّرْتُ بِأَذْيَالِي

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال ربكم عز وجل: لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر  
بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد) • قال أبو سليمان الداراني: من صفا صفا له،  
ومن كدر كدر عليه، ومن أحسن في ليله كفى في نهاره • وقال القضايل بن عياض: إني لأعصى الله فأعرف ذلك في  
خلق دابتي وجاريتي • فيامن من يريد دوام العيش على البقاء، دم على الإخلاص والنقاء، وإياك والمعاصي، فالعاصي  
في شقاء المعاصي، والمعاصي تذلل الإنسان وتخرس اللسان، وتغير الحال المستقيم، وتحمل الاعوجاج مكان التقويم •  
قال يحيى بن أبي كثير: لما أصاب داود الخطيئة نفرت الوحوش من حوله، إلهي رد على الوحوش كي أستأنس بها،  
فردها الله عليه، فأحطن به واصطففن إليه فرفع صوته بقرآنه الزبور، فنادته هيهات هيهات يا داود قد ذهبت  
الخطيئة بجلاوة صوتك، فكان يقول: بح صوتي في صفا أصوات الصديقين، وأصبحت كالبازي المنتف ريشه يرى  
حسران كلما طار طائرًا:

يَرَى طَائِرَاتُ الْجَوِّ يَخْفِقْنَ فِي الْهَوَى ... فَيَذْكَرُ رِيشًا مِنْ جَنَاحِيهِ وَافِرٍ  
وَقَدْ كَانَ دَهْرًا فِي الرِّيَاضِ مُنْعَمًا ... عَلَى كُلِّ مَنْ يَهْوَى مِنَ الصَّيْدِ قَادِرٍ

إِلَى أَنْ أَصَابَتْهُ مِنَ اللَّهْرِ نَكْبَةٌ ... فَأَصْبَحَ مَقْضُوعَ الْجَنَاحِينَ حَاسِرٍ  
مَضَى السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ لِفُورِهِمْ ... وَقَصَّرَتْ فِي أَمْرِي وَإِنِّي لِحَاسِرٍ

## الفصل الثالث والعشرون

### الصلاة

اعلموا - إخواني - أن الله عز وجل قد قدر الصلوات وقدمها على غيرها من العبادات، وإنما يحافظ عليها من يعرف قدرها، ويرجو أجرها، ويخاف العقاب على تركها، وهذه صفة المؤمن، وإنما يتوانى عنها ناقص الإيمان إن تكاسل، وكافر إن تهاون. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة). وروى في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (عليك بكثرة السجود فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة). وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (جعلت قرة عيني في الصلاة). وقد كان الله عز وجل عباد يحبون خدمته لشدة محبتهم إياه فيحضرون في الصلاة قلوبهم ويجمعون لأدائها همهم. وروى عن ابن الزبير أنه كان إذا قام في الصلاة فكأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جزعاً أو حانطاً أو وجه حجر أو رحل فدقه وهو في الصلاة فذهبت ببعض ثوبه فما النفث، وكان إذا دخل بيته سكت أهل البيت، فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا. واعلموا - إخواني - أن من أحب للمخدوم أحب الخدمة له، لو عرف العبد من يناجي، لم يقبل على غيره، والصلاة صلة بين العبد وبين ربه. الستر الأول: الأذان، كالإذن في الدخول. وستر التقريب الإقامة: فإذا كشف ذلك الغطاء لاح للمتقي قرة العي، فدخل في دائرة دار المناجاة (أرحنا بما يا بلال)، فقد جعلت قرة عيني في الصلاة) اكشف يا بلال ستر التقريب عن الحبيب. يا بطلال: لو سافرت بلداً لم تريح فيه حزنت على فوات ربك وضيا ع وقتك، أفلا يبكي من دخل في الصلاة على قرة العين ثم خرج بغير فائدة.

يُصلي فَيُرْسِلُهَا كَالطَّيُورِ ... إِذَا أُرْسِلَتْ مِنْ حِصَارِ الْقُصَصِ  
يَقُومُ وَيُقْعَدُ مُسْتَعْجِلاً ... كَمِثْلِ الطَّرُوبِ إِذَا مَا رَقَّصَ

إخواني لا تقنعوا بالحركان، فإن الله لا ينظر إلى صوركم. يا هذا: إنما يصاد الطائر بمحبوبه من الحب، ومحبوب القلب الطاهر ذكر الله عز وجل، فحرام على قلبك، على قلبك الحائم حول جيف الهوى، القى له حب الذكر على فخ الصدق في حديقة الصور لعله يقع في شبكة المعرفة.

## الفصل الرابع والعشرون

عُدْ إِلَى رَبِّكَ

أيها العبد: تناه عن قبيح فعلك قبل انبتات جهلك، وانظر لنفسك في أمرك قبل حلولك في قبرك. كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تنزل. ووعظ أعرابي ابنه، فقال: لا الدهر يعظك، ولا الأيام تنذرك، والساعات تعد عليك، والأنفاس تعد منك، أحب أمريك إليك أردهما بالضررة عليك. ووجد على حجر مكتوب: ابن آدم، لو رأيت ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة في عملك، ولقصرت من جهلك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك إذا زلت قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وبعادك الولد القريب، ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة. قبل الحسرة والندامة. وقف قوم على راهب فقالوا: إننا سائلوك، أقمجينا أنت؟ فقال: لا تكثرُوا فإنَّ النهارَ لم يرجع، والعمر لن يعود، والطالب حيث في طلبه، ذو اجتهاد، فقالوا: ما على الخلق غداً عند مليكهم؟ قال: على نيلكم، قالوا: فأني المائل؟ فقال: إلى المقدم، قالوا: فأوصنا، قال: تزودا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما بلغ البغية. يا هذا: لا تجزع لرؤية ملك الموت، وائت وأنت تشاهد فيها عملك، عمرك قليل، وقد ضيعت أكثره، فكيف شعورك في البقية، ولعل هذا اليوم الآخر، واللييلة الأخيرة ما أرخص ما يباع عمرك، وما أغفلك عن السرى، إنما المرض نهاية

الصحة، والقراق قرين الوصلة، والأيام ترحل، ولا بد من مسة بدن والحبيب مفارق أو مُفَارِقٌ، والمرء رهن مصائب .

الأيام تنقضي حتى يوارى جسمه في رمسه فمؤجل يلقي الردى في غيره، ومعجل يلقي الردى في نفسه، الدنيا لمن فهم، قنطرة العبور وسوق التزود ومنتظرة التنظيف وزرعت للحصاد، فأما للعاقل فهي مفرقة للجامع، ومحزنة الربوع، ومحرمية الدموع، من نال من دنياه أمنيته أسقطت الأيام منها الإلف، اطلب فيها قدر بلغتك، وخذ مقدار حاجتك خصها خصوص المسافر في طلب علف بعيره، اطلب الدنيا قدر الحاجة، واطلب الآخرة على حسب الطاقة، هذا ولو أنك بلغت إلى الحمى التوكل لاستراح قلبك، وغذاك الله كما يغذي الطير، تغدو خماساً، وتروح بطاناً .

## الفصل الخامس والعشرون

### احذر الغفلة

قال الله عز وجل: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) . فإن اختلف المفسرون في المراد بمقام ربه على قولين: أحدهما: إنه قيام العبد بين يدي ربه يوم الجزاء . والثاني: إنه قيام الله تعالى عباده فأحصى ما اكتسب، والمراد بالهوى ههنا، ما يهوى العبد من المحارم، فيذكر مقامه للحسنات، واعلم: أن من تفكر عند إقدامه على الخطيئة في نظر الحق إليه رده فكره خجلاً مما هم به، فالناس في ذلك على مراتب فمنهم من يتفكر عند جولان الهم بالذنب فيستحي من مساكنة ذلك الخاطر، وهذا مقام أهل الصفا، ومنهم من قويت أسباب غفلته فهو ساكن ذلك الهم إلا أنه لا يعزم عليه، ومنهم من يعزم لقوة غفلته، فهو يستسقي إقدامه فيما عزم عليه، ومنهم من زاد على ذلك بمقارنته الخطور ومداناته، ثم تدركه اليقظة، وإنما يكون هذا على مقدار تكاثف الغفلة وقتلتها، فيفكر عند خاطره في عظمته من قد علم، وعند يقظه في جلال من قد سمع، وعند فعله في عزة من قد رأى، وهذا الفكر إنما نبت عن إصرار راسخ من الإيمان في القلب راعاه الحق إليه حذار علتته ومعاملة صادقة في الخلو، إلا أن الغفلة عن التذكرة والسعي على جادة الهوى غشى على القلب، وران عليه فإذا هم بخطيئة أو قاربها اقتلب مراعاة الحق إليه، خذ مراعاته بحق الحق قبل ذلك كما قال الله عز وجل: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)، وقال: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)، وكما جاء في الحديث: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) . فما ينفر طائر قلبه من وسخ العزم على الذنب ثم عام في بحر الحياة خجلاً مما هم به يخرج قياً بعد الوسخ طاهراً بعد النجس، لأن الأصل محفوظ بالصدق ومرهون بالإيمان، ولولا لطف الحق لكشف حجب الغفلة لبرقع الذنب، غير أنه أراه برهان الهدى فرجع، وأقام له هاتف التقوى فخشع، والقلوب تحن إلى ما اعتادت وألفت، وتنازع إلى ما مرت عليه وعرفت . أما سمعت قول عمر بن أبي:

بَيْنَمَا نَحْنُ فِي وِلَادِكُ فَالْقَاعُ ... سِرَاعًا وَالْعَيْشُ يَهْوَى هَوِيًّا  
خَطَرَتْ خَطَرَةً عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ... ذِكْرِكَ وَهَنَا فَمَا أَطَقْتُ مَضِيًّا  
قُلْتُ لِلشُّوقِ إِذَا دَعَانِي ... لِيَبْكُ وَلِلْحَادِيَيْنِ رُدُّوا الْمَطِيًّا  
أَثَارَهُمْ بَعْدَهُمْ وَمَا صَنَعُوا ... تَخْبِرُنَا أَنَّنَا لَهُمْ تَبِعُ  
يَا وَاقِفًا بِالْدِّيَارِ مُكْتَسِبًا ... يَنْدِبُ قَوْمًا مِنْ مَلِكِهِمْ نُزَعُوا

ادخل إلى الدارِ فهِيَ خاليةٌ ... من سادة في الترابِ قد وضعوا  
إذا تأملتُهُمْ كأنَّهُمْ ما ... نَظَرُوا نَظْرَةً ولا سمعوا  
ولا جرى بينهم مذاكرة ... ولا لنصر سَعوا ولا نفعوا  
كانوا كركبِ خطورِ رحالهم ... فما استراحوا حتى لَهَا رجَعوا  
تم كتاب الياقوتة على التمام والكمال، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الصفحة الرئيسية حول الموقع اتصل بنا ترجمات القرآن أعلى الصفحة

جميع الحقوق متاحة لجميع المسلمين | © ISLAMICBOOK.WS